نجيب محفوظ
رجُلُ القصَّة العربيَّة

أوَّل مقاربة نقديَّة كتبتها كانت بعنوان «**نجيب محفوظ رجُلُ القصَّة العربيَّة**». بدا لي ذلك، وأنا في دار المعلِّمين والمعلِّمات، وبقي يزداد تأكُّداً، فنجيب محفوظ اتَّخذ هذه المكانة منذ أن بدأ بالمرحلة التاريخيَّة، فرأى إلى التاريخ القديم من منظور يصلح عنوان روايته، «عبث الأقدار» وصفاً له. ثمَّ في المرحلة الواقعيَّة، إذ رأى إلى الواقع التاريخي المعيش، وجسَّده لغةً روائية تفيد من إنجازات الرواية الغربيَّة في الوقت نفسه الذي لا تنفصل فيه عن التُّراث السردي العربي.

من خصائص هذا السَّرد ما يتَّصل بالبناء الروائي، فيكون للفصل استقلاله في الوقت نفسه الذي ينتظم فيه في نظام البناء الكلي، وما يتَّصل بالأسلوب، يستخدم السَّرد التصويري والتصوير السردي، وهاتان تقنيَّتان عُرف بهما السرد الروائي العربي، وبخاصَّة لدى الجاحظ.

وقد تبيَّن محفوظ، في هذه المرحلة، ثلاث قوى فاعلة في المجتمع العربي: اليسار، الإخوان، المتسلِّقون، وإذ قطع الانقلاب العسكري التطوُّر الطبيعي قفزت القوَّة الثالثة إلى موقع القيادة، وأُقصيت القوَّتان الأخريان: قمعاً أو تهميشاً أو توظيفاً...، ما أفضى إلى بدء المرحلة التجريبيَّة التي مثَّلت هذا المسار من التردِّي الذي صرنا إليه.

في هذا المسار المشبع بالفساد، عاد الروائي، برؤيته النافذة إلى جواهر الأمور، إلى التراث ليفيد منه في تصوير الصِّراع الدائر، منذ بدء الخليقة، بين البشر، من أجل الثروة والسلطة والمتعة، وقد تكون «الحرافيش» الرائعة التي

مثَّلت هذا الصِّراع، وهو صراع أزلي يظهر فيه المخلِّص، ثمَّ يسود الطغيان والفساد في انتظار مخلِّص جديد، وهكذا...

في روايات هذه المرحلة جوهري ثابت يُستقى من التراث وجديد تبدعه التجربة الفريدة لمحفوظ، بيان ذلك يحتاج إلى تفصيل ليس هنا مقامه، وإنَّما أحيل إلى دراسة مفصَّلة كنت قد كتبتها في هذا الموضوع(١). والمهم أنَّ الإفادة الخلَّاقة من التراث تواصلت في «أصداء من السيرة الذاتية»، ففيها إفادة من حديث السمر العربي، المتمثِّل بالحديث الشيِّق المركَّز، الملتقط النادر من الوقائع؛ الكاشف مفارقات الحياة الطريفة الناطقة برؤية إلى العالم.

لم يكف نجيب محفوظ عن التجدُّد والتطوُّر من دون أن ينقطع عن التراثين: الغربي والعربي، وعن الحياة، فكان كما قيل: «متنبِّي الرِّواية العربيَّة».

● **في ما يأتي المقاربة التي كنت قد كتبتها، ونُشرت في مجلة القلم الناشئ**، وهي مجلة كان يصدرها طلبة دار المعلمين والمعلمات في صيدا. السنة الرابعة، العدد الأوَّل، نيسان **١٩٦٦**.

«يقولون، بل يؤكِّدون أنَّ القصَّة العربيَّة لم تزل في مرحلتها الأولى، طفلة لم تسر بعد، أو راشدة طائشة. ولذا فمن غير المقبول أن تصل إلى المستوى العالمي. هذه القضية لها أهميتها بالنسبة لنا كشعب ينمو، وله قضاياه التي يريد أن يعرِّفها إلى العالم، وبالنسبة لأدبنا الغني الذي يريد من ممثِّليه الكثير. أقول هذا لما للقصَّة من قيمة في عصرنا. فهي فن هذا العصر وابنته القادرة على حمل معطياته وإبراز حالاته وأوضاعه. فليس أقدر منها على التعبير عن إحساسات عيشنا المليء بالقلق والاضطراب، المتَّسم بالأزمات: أخلاق، تفكير وتحرير.

ولا أظن أنَّني أعطي القصَّة أكثر من قيمتها، عندما اقول: إنَّها منتشرة بشكل عجيب، وتكاد تطغى على سائر الفنون؛ وذلك لانصبابها على الإنسان والحياة في محاولات تفسير ونظرات معينة إلى الوجود.

---

(١) راجع: عبد المجيد زراقط، النَّص الأدبي ومعرفته، بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية، ط. ١، ٢٠٠٨، ص. ١٦٨ ـ ١٩٦.

والقصَّة العربيَّة، قضيتها تفرض علينا جلاء بعض الحقائق، ووضع علامات استفهام لمحاولة فهم الكثير من الأشياء. وإنَّ أوَّل ما يعرض لنا هو تحديد القصَّة الجيدة ونوعيَّة قصصنا. وفي عرفي أنَّ أبرز ما يميِّز القصَّة الجيدة فلسفتها الحياتيَّة، نظرة مبدعها إلى الوجود وقوَّة إيمانه بهذه النظرة، ثمَّ قوَّة نظراته وصلابتها وإنسانيتها. فهي التي تنشئ الحوادث، وتخلق الشخصيات، وتضع المواقف وفق منطق مقبول معقول مقنع.

فلو سألنا: ما الذي خلَّد «الشيخ والبحر» لهمنغواي، وجعلها تنال جائزة نوبل لوجدنا الجواب سهلاً: إنَّها تتبنَّى قضية إنسانيَّة، صراع الإنسان والطبيعة، قوَّة الإنسان ونضاله، وسوق السرد في شكل يخدم القضيَّة، ويرضي المنطق والجمال.

إنَّ القاصَّ المجيد هو صاحب المفهوم الخاص، الخالق للحياة تسري وتجري في حوادث وصور، عبر أبطال سيعيشون ويتصرّفون بطبعيَّة.

إنَّ سارتر، أحد كبار الأدباء المعاصرين والرافض لجائزة نوبل، يقصُّ، يخلق أبطالاً صنعهم هو. ومع هذا نجد تصرفاتهم لاصقة بالوجود، بأزمة انقطاع الجذور عند إنساننا المعاصر. يعرض مفهوماً للوجود في قصصه ويخلق الحياة في هذه القصص وفق مفهوم... ومع هذا، نجد أنفسنا أمام حياة لا ننكرها ولا نبتعد عنها. هذا هو الأدب الخالد، الأدب الإنساني المسؤول الناضج، الممثِّل لعصره. إنَّ مبدأ «التحرُّر والمسؤوليَّة» لم يجعل من قصَّته ورقة إعلان، ولم يجعل منها خطاباً، لا ولا سَوْقاً خارقاً لحوادث غير طبيعية، وإنَّما جعل منها حياة تنبض، تعيش وتفرض احترامها على القارئ.

اعتقد أنَّ الزخم التحليلي والقصد والتأمُّل الاجتماعي الموصل إلى فلسفة حياتية خالقة مفسِّرة هو المطلوب من القصَّة الجيدة والعالمية. وأظنُّ أنَّنا لو استعرضنا أكثر قصصنا العربيَّة نجد هذا أو أكثره مفقوداً.

قد يكون ظني متسرِّعاً، ولكنِّي لا أحتاج إلى كثير من الجهد لإثباته. فلدى استعراضنا لبعض المؤلَّفات القصصيَّة نجد هذا واضحاً. فهناك من يسرد ويسرد

هكذا وكيفما اتفق لا لشيء، وإنَّما لتركيب حوادث تدبِّرها المصادفة، وهناك من يتأزَّم عنده الوضع، فيعمد إلى حادثة قاهرة خارجيَّة كصدمة سيارة أو حرب وقعت فجأة أو انقلاب أو موت، حتى أصبحنا ننتظر عند تأزُّم الوضع عند بعض كتابنا مرضاً أو ما شابه. حتى أنَّ القصَّة التي تخلو من مثل هذا تكاد تكون نادرة. أمثال هذه التصرفات إن أنبأت فعن ضعف وحيرة وتلبُّك، وعن استجداء الظروف لحلِّ مشكلة خلقها السرد. وهذا يذكِّرنا بطفل يحلم بقوى خارقة. إنسان طفل يحلم أحلام يقظة بلهجة خطابية. وفي الحقيقة أنَّ في كلِّ قصَّة فلسفة حياتية، ولكنَّها تختلف من طفلة إلى عملاقة، من صبي لا يزال يدرج إلى رجل يسير بثقة.

إن «لقيطة»، إحدى أولى قصصنا والتي طرحت مشكلة نعيشها، لم يقدر مؤلِّفها على إبراز الشخصيَّات...، ولم يقدر أيضاً على الاستمرار في الخلق والتحليل، وإنَّما استعان بمبضع الجرَّاح الذي أمات الفتاة المشكلة.

وقد يكون هذا طبيعياً بالنسبة للمصادفات، ولكنَّه عجز بالنسبة لخالق، عجز أمام تأزُّم المشكلة فحلَّها بمبضع قطعها. والسُّؤال الذي أدَّى إلى عجزه: ماذا لو لم يتدخَّل الموت؟ هنا، في الإجابة عن هذا السُّؤال العبقرية تظهر.

والدكتور سهيل إدريس، أحد أعلام الأدب الذي ينتظر منه الكثير، كيف تصرَّف في قصصه. وأظنُّ أنَّ أصدق وصف لها هو «سندويشات» بالنسبة لطبخ يحوي اللحم والمرق والطعم اللذيذ، يعني أنَّها سطحيات تطفو. إنَّه يسجِّل حوادث من دون تبيان الظروف والعوامل، ومن دون تحليل المواقف والغوص إلى العمق. إنَّها مجرَّد ذكريات تحكى.

هذه حال القصَّة العربيَّة التي اخترت الأنموذج الأفضل منها.

وأظنُّ أنَّ فشلها لا يعود إلَّا لأنَّها لم تقلع الإنسان العربي من ظروفه وأزماته وأحلامه والعوامل المؤثِّرة عليه وتحليلها وإنَّما اكتفت بالرُّؤية، باللحظة السريعة. وأصدق دليل على هذا عجزها عن الوصول إلى مستوى النكبة الفلسطينيَّة. حتى أنَّ كاتبة هولنديَّة وصلت في «الطريق إلى بئر السبع» إلى مستوى القضية أكثر من أدباء العربيَّة.

إنَّ هذا لا يعني بأنَّنا فشلنا في ميدان القصَّة. لا... فهناك الكثير من المحاولات الموفقة، والتي تمنع من أخذ قاعدة عامَّة، والتي تجعلنا نشكُّ بصدق المؤكِّدين طفولة القصَّة العربية. فهناك نجيب محفوظ وغيره كيوسف إدريس. وأظنُّ، غير مخطئ، أنَّ نجيب محفوظ هو رجل القصَّة العربيَّة التي تحكي وتريد، والتي تضع أمامنا دنيا تنبض وتخفق بنبض الإنسان العربي المعاصر. حياته بكلِّ ما فيها من مشاكل وقضايا وتطورات وأزمات تفكيرية ونفسية وأخلاقيَّة. وأكاد أقول: إنَّ محفوظ مسجِّل أمين لحالتنا الاجتماعية في هذا العصر. وهذا ما يميِّز الأديب تمثيله لعصره. وعدا عن هذا، فهو صاحب فلسفة في النَّظرة إلى الحياة، تسوق حوادثه من دون أن تفقدها منطقيتها وأصالتها.

إنَّ من يقرأ الثلاثيَّة يشعر بالبيئة المصرية، بل العربية بكلِّ ما فيها من أشياء؛ يعيش مع أبطالها، ويحسُّ بوجودهم قربه، وينفر من أحدهم أو يحب غيره أو يعطف على آخر. كذلك يجد فيهم إمَّا شخصه وإمَّا أباه أو جدِّه.

وأعتقد أنَّ نجيب محفوظ أراد أن يؤرِّخ لأهم مرحلة في تاريخنا عندما كتب «ثلاثيته»، ولكن بشكل حياة معاشة، حيَّة، ومليئة بالإنسان الذي يعيش بقلبه وروحه وماضيه ومستقبله. فهذا «عبد الجواد» الأب القديم، الرَّجل السيِّد المطاع. وتلك «أمينة» امرأة ذاك العصر المطيعة والتي لا تعرف من الحياة إلَّا مسجد «الحسين»، وهناك «فهمي» الشَّاب الوطني الذي يمثِّل مرحلة التحرُّر التي مرَّ فيها وطننا العربي. أو «ياسين» الشَّاب الطيِّب البسيط الذي خلقت منه الظروف مع الكبت شهوانيَّاً. و«كمال» المثقف المتأزِّم الحائر، الكافر، الذي يمثِّل جيلنا المثقَّف الآخذ من هنا وهناك، يستعرض حضارة الغرب ومعطياتها من دون أن يعطي شيئاً جديداً.

وعرضه للحوادث عرض محلِّل رصين، إنَّه يقلع المشهد من الجذور، ويركِّب المشاهد حسب منطقه الخاص،... والحياة بلا منطق، عوامل وظروف

من نفسية واجتماعيَّة واقتصاديَّة تخلق الموقف وتحدِّده. إنَّ «ياسين» غير «فهمي» وهذا غير «كمال»... مع أنَّهم من بيت واحد، إنَّه يريك كيف أنَّ أم ياسين أثرت فيه، كذلك حب كمال وفشله في حبه وفيزيولوجيته، ذلك كله يؤثِّر عليه ويحدِّد مواقفه وحياته.

وفي «الثلاثيَّة» دُنىً رحبة، تقول لنا: هنا الأحداث تتفاعل لتخلق حياة تجري طبيعيَّاً... وأكثر ما تبرز فلسفة نجيب محفوظ في «عبث الأقدار»؛ حيث تسير الحياة بلا منطق، تتباعد الظروف، وتلعب المصادفات، فتخلق من طفل لا شأن له، فرعوناً لمصر...

وفي أكثر رواياته، نجد هذا. الحياة كما هي، تنعدم منطقيتها، ولكن نجيب محفوظ وقع كما وقع غيره في عدم القدرة على التخلُّص من المشاكل التي يصل إليها، فهو في إحدى رواياته، بعد عرض رائع، وسير جد عظيم في تصوير حياة شاب، فرضت عليه الظروف شخصيَّة معينة، خجولة، ولمَّا تأزَّم الوضع أمات الزوج والأم هكذا وفجأة... وكذلك في إماتته شابَّاً يرى أنَّه حرٌّ لا يريد ارتباطاتٍ من أي نوع، فقد أماته في أوج الأزمة...

ومع هذا، يبقى رجل القصَّة العربيَّة الذي جعل منها قصَّة بالمعنى الحديث للقصَّة، وأدباً يقرأ، وإن توجَّه، أخيراً، وبعد «أولاد حارتنا» إلى تغليب الناحية الفلسفيَّة والفكريَّة على الصورة والحادثة الواضحة، وفي قصصه الأخيرة، يكاد يتخلَّى عن ميزته الأولى وهي البيئة المصريَّة، أو العربيَّة بشكل عام.

وفي الحقيقة، إنَّ هناك قصَّاصين عرباً، ولكن القضيَّة قضيَّة كيفية، وهذا ما يدفعنا إلى القول: إنَّ نوعيَّة قصصنا محافظة...

وهذا لا يمنع وجود قصاصين، ولكن قلائل. ولكن البداية تكون قلَّة لتصبح كثرة...».

❐ ❐ ❐